البـــاب الأول

قصــة بنــاء الكعبــة

من الكتاب والسنة

قصة بناء الكعبة
من الكتاب والسنة

قال تعالى:

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (المائدة : ٩٧)

بناء الكعبة حدث عظيم تكلم العلماء في كيفية بنائها؛ ومن الذي بناها، واختلف الناس فيمن بني البيت أولا وأسَّسه ؛ فقيل : الملائكة .

رُوى عن جعفر بن محمد قال : سئل أبي وأنا حاضر عن بدْء خلق البيت فقال : إن الله عز وجل لما قال : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ قالت الملائكة: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ فغضب عليهم ؛ فعاذوا بعرشه وطافوا حوله سبعة أشواط يسترضون ربهم حتى ـ رضي الله عنهم ـ، وقال لهم : ابنوا لي بيتاً في الأرض يتعوَّذ به من سخطت عليه من بني آدم، ويطوف حوله كما طفتم حول عرشي ، فأرضى عنه كما رضيت عنكم، فبنوا هذا البيت .

وذكر عبدالرزاق عن ابن جُريج عن عطاء وابن المسيب وغيرهم أن الله عز وجل أوحى إلى آدم: إذا هبطت ابن لي بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحفّ بعرشي الذي في السماء. قال عطاء: فزعم الناس أنه بناه من خمسة أجبل : من حِرَاء ، ومن طور سيناء ، ومن لبنان ، ومن الجوديّ ، ومن طور زيتا؛ وكان رُبْضه من حِرَاء . قال الخليل : والرُّبْضُ هاهنا الأساس المستدير بالبيت من الصخر ، ومنه يقال لما حول المدينة : رَبَض. وذكر الماوردي عن عطاء عن ابن عباس قال : لما أهبط آدم من الجنة إلى الأرض قال له : يا آدم، اذهب فابن لي بيتا وطف به واذكرني عنده ، كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي؛ فأقبل آدم يتخطى وطُويت له الأرض، وقُبضت له المفازة؛ فلا يقع قدمه على شيء من الأرض إلا صار عمرانا حتى انتهى إلى موضع البيت الحرام، وأن جبريل عليه السلام ضرب بجناحيه الأرض فأبرز عن أسّ ثابت على الأرض السابعة السُّفلى وقذفت إليه الملائكة بالصَّخْر ، فما يطيق الصخرة منها ثلاثون رجلا، وأنه بناه من خمسة أجبل كما ذكرنا.

وقد روى في بعض الأخبار : أنه أهبط لآدم عليه السلام خيمة من خيام الجنة ، فضُربت في موضع الكعبة ليسكن إليها ويطوف حولها ،فلم تزل باقية حتى قبض الله ـ عز وجل ـ آدم ثم رُفعت . وهذا من طريق وَهْب بن مُنبّه . وفي رواية : أنه أُهبط معه بيت فكان

يطوف به والمؤمنون من ولده كذلك إلى زمان الغرق ، ثم رفعه الله فصار في السماء ، وهو الذي يُدعى البيت المعمور.

رُوِيَ هذا عن قتادة ذكره الحَليمي في كتاب (منهاج الدين) له ، وقال يجوز أن يكون معنى ما قال قتادة من أنه أهبط مع آدم بيت ، أي أهبط معه مقدار البيت المعمور طولا وعرضا وسُمكا ، ثم قيل له : ابن بقدره ؛ وتحرَّى أن يكون بحياله ، فكان حياله موضع الكعبة ، فبناها فيه. وأما الخيمة فقد يجوز أن تكون أنزلت وضُربت في موضع الكعبة ، فلما أمر ببنائها فبناها كانت حول الكعبة طمأنينة لقلب آدم عليه السلام ما عاش ثم رفعت ؛ فتتفق هذه الأخبار. فهذا بناء آدم عليه السلام ثم بناه إبراهيم عليه السلام .

قال ابن جريج وقال ناس : أرسل الله سبحانه فيها رأس ؛ فقال الرأس : يا إبراهيم، إن ربّك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة ؛ فجعل ينظر إليها ويخط قدرها ؛ ثم قال الرأس : إنه قد فعلت ؛ فحفر فأبرز عن أساس ثابت في الأرض.

ورُوِيَ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أن الله تعالى لما أمر إبراهيم بعمارة البيت خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل وأمه هاجر ، وبعث معه السَّكينة لها لسان تتكلَّم به يغدو معها إبراهيم إذا غدت ، ويروح معها إذا راحت ، حتى انتهت به إلى مكة ؛ فقالت لإبراهيم : ابن على موضعي الأساس؛ فرفع البيت هو وإسماعيل حتى انتهى إلى موضع الركن فقال لابنه : يا بُنيَّ ، أبغني حجرا أجعله عَلَما للناس؛ فجاءه بحجر فلم يرضه ؛ وقال : أبغني غيره ، فذهب يلتمس، فجاءه وقد أتى بالركن فوضعه موضعه ، فقال : يا أبت ، من جاءك بهذا الحجر ؟ فقال: من لم يكلني إليك . ابن عباس : صالح أبوقُبيس : يا إبراهيم ، يا خليل الرحمن ، إن لك عندي وديعة فخذها ، فإذا هو بحجر أبيض من ياقوت الجنة، كان آدم قد نزل به من الجنة، فلما رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت جاءت سحابة مربَّعة فيها رأس فنادت : أنِ ارفعا على تربيعي . فهذا بناء إبراهيم عليه السلام

ورُوِيَ أن إبراهيم وإسماعيل لما فرغا من بناء البيت أعطاهما الله الخيل جزاء عن رفع قواعد البيت.

رَوى التِّرمذي الحكيم حدثنا عمر بن أبي عمر حدَّثني نعيم بن حماد حدَّثنا عبدالوهاب بن همام أخو عبدالرزاق عن ابن جُريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس قال : كانت الخيل وَحْشاً كسائر الوحش، فلما أذن الله لإبراهيم وإسماعيل برفع القواعد ، قال الله تبارك اسمه : (إني معطيكما كنزا ادخرته لكما)، ثم أوحى إلى إسماعيل أن اخرج إلى أجْياد فادع يأتك الكنز. فخرج إلى أجْياد ـ وكانت وطنا ـ ولا يدري ما الدعاء ولا الكنز فألهمه؛ فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته فأمكنته من نواصيها وذلَّلها له، فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين ، وهي ميراث أبيكم إسماعيل ، فإنما سُمِّيَ الفرس عربيًّا لأن إسماعيل أمر بالدعاء وإياه أتى.

وروى عبدالمنعم بن إدريس عن وهب بن مُنَبَّه ، قال : أوَّل من بني البيت بالطين والحجارة شيث عليه السلام وأما بنيان قريش له فمشهور ، وخبر الحيَّة في ذلك مذكور، وكانت تمنعهم من هدمه إلى أن اجتمعت قريش عند المقام فعجُّوا إلى الله تعالى وقالوا: ربَّنا ، لم تُرَعْ ! أردنا تشريف بيتك وتزيينه ، فإن كنت ترضى بذلك وإلا فما بدا لك فافعل ، فسمعوا خَواتًا من السماء ـ والخَوَات : حفيف جناح الطير الضخم ـ فإذا هو بطائر أعظم من النِّسر ، أسود الظهر ، أبيض البطن والرجلين ؛ فغرز مخالبه في قفا الحيَّة ، ثم انطلق بها تجرّ ذنبها أعظم من كذا وكذا حتى انطلق بها نحو أجياد ؛ فهدتها قريش وجعلوا يبنونها بحجارة الوادي تحملها قريش على رقابها ، فرفعوها في السماء عشرين ذراعا، فبينا النبي ﷺ حمل حجارة من أجياد وعليه نمرة فضاقت عليه النَّمرة فذهب برفع النَّمرة على عاتقه ، فَتُرى عورته من صغر النَّمرة ؛ فنودي : يا محمد ، خمِّر عوْرتك فلم يُر عُرْيانا بعدُ.

وكان بين بنيان الكعبة وبين ما أنزل عليه خمس سنين ، وبين مخرجه وبنائها خمس عشرة سنة. ذكره عبدالرزاق عن معمر عن عبدالله بن عثمان عن أبي الطفيل . وذكر عن معمر عن الزهري: حتى إذا بنوها وبلغوا موضع الركن اختصمت قريش في الركن، أيّ القبائل تلى رفعه ؟ حتى شجر بينهم ؛ فقالوا : تعالوْا نحكّم أوّل من يطلع علينا من هذه السكّة ، فاصطلحوا على ذلك ؛ فأطلع عليهم رسول الله ﷺ وهو غلام عليه وشاح نمرة ، فحكّموه فأمر بالركن فوُضع في ثوب، ثم أمر سيّد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب ، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ؛ فكان هو يضعه ﷺ.

قال ابن إسحاق : وحُدّثت أن قريشا وجدوا في الركن كتابا بالسريانية فلم يُدْرَ ما هو ، حتى قرأه لهم رجل من يهود ، فإذا فيه : " **أنا الله ذو بكّة خلقتها يوم خلقتُ السموات والأرض ، وصوّرت الشمس والقمر ، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء لا تزول حتى يزول أخشباها ، مباركٌ لأهلها في الماء واللبن**".

وعن أبي جعفر محمد بن عليّ قال : كان باب الكعبة على عهد العماليق وجُرْهُمْ وإبراهيم عليه السلام بالأرض حتى بنته قريش.

خرَّج مسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الجَدْر أمن البيت هو ؟ قال : (نعم) قلت : فلم لم يدخلوها [في البيت] ؟ قال : (إنَّ قومك قَصَّرت بهم النفقة) . قلت: فما شأن بابه مرتفعا ؟ قال : (فعل ذلك قومك ليُدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا، ولولا أن قومك حديثُ عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تُنكر قلوبهم لنظرتُ أن أُدخل الجَدْر في البيت وأن أُلزِق بابه بالأرض) .

وخرَّج عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه قال : حدَّثتني خالتي (يعني عائشة) ـ رضي الله عنها ـ قالت قال النبي ﷺ : (يا عائشة لولا أن قومك حديثُو عهد بشرك لهدمتُ الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلتُ لها بابين بابا شرقيّا وبابا غربيًّا وزدت فيها ستة أذرع من الحِجْر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة).

وعن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لي رسول الله ﷺ : (لولا حداثة [عَهْد] قومِك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم ، فإن قريشاً حين بنت الكعبة استقصرت ولجعلتُ لها خلفا).

وفي البخاري قال هشام بن عروة : يعني بابا . وفي البخاري أيضا : (لجعلت لها خلْفين) يعني بابين؛ فهذا بناء قريش .ثم لما غزا أهل الشام عبدالله بن الزبير وَوَهت الكعبة من حريقهم، هدمها ابن الزبير وبناها على ما أخبرته عائشة ، وزاد فيه خمسة أذرع من الحِجْر ، حتى أبدى أسًّا نظر الناس إليه ، فبنى عليه البناء ، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا، فلما زاد فيه استقصره ، فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل لها بابين أحدهما يُدخل منه، والآخر يُخرج منه؛ كذا في صحيح مسلم ، وألفاظ الحديث تختلف.

وذكر سفيان عن داود بن شابور عن مجاهد قال : لما أراد ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويَبْنِيهُ قال للناس : اهدموا ؛ قال : فأبَوْا أن يهدموا وخافوا أن ينزل عليهم العذاب.

قال مجاهد : فخرجنا إلى منًى فأقمنا بها ثلاثا ننتظر العذاب. قال : وارتقى ابن الزبير على جدار الكعبة هو بنفسه ، فلما رأوا أنه لم يصبه شيء اجترءوا على ذلك ؛ قال : فهدموا. فلما بناها جعل لها بابين : بابا يدخلون منه ، وبابا يخرجون منه، وزاد فيه مما يلي الحِجْر ستة أذرع ، وزاد في طولها تسعة أذرع.

قال مسلم في حديثه : فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان يخبره بذلك ، ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍ نظر إليه العدول من أهل مكة فكتب إليه عبدالملك: إنّا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء ؛ أما ما زاد في طوله فأقِرَّه ، وأما ما زاد فيه من الحِجر فردَّه إلى بنائه ، وسُدَّ الباب الذي فتحه ؛ فنقضه وأعاده إلى بنائه .

في رواية : قال عبدالملك : ما كنت أظن أبا خُبيب (يعني ابن الزبير) سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها ؛ قال الحارث بن عبدالله : بلى ، أنا سمعته منها ؛ قال : سمعتها تقول ماذا؟ قال : قالت قال رسول الله ﷺ : (إن قومك استقصروا من بنيان البيت ، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدتُ ما تركوا منه فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فَهَلُمِّي لأُرِيَكِ ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع) .

في رواية أخرى : قال عبدالملك : لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير . فهذا ما جاء في بناء الكعبة من الآثار.

ورُوي أن الرشيد ذكر لمالك بن أنس أنه يريد هدم ما بنى الحجاج من الكعبة، وأن يردَّه على بناء ابن الزبير لما جاء عن النبي ﷺ وامتثله ابن الزبير ، فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المؤمنين، ألا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقض البيت وبناه؛ فتذهب هيبته من صدور الناس. وذكر الواقدي : حدّثنا معمر عن

همام بن منبّه سمع أبا هريرة يقول : نهى رسول الله ﷺ عن سب أسعد الحميري ، وهو تُبّع ، وهو أول من كسا البيت ، وهو تُبّع الآخر. قال ابن إسحاق: كانت تُكْسَى القباطيّ ثم كسيت البُرُد ، وأوَّل من كساها الديباج الحجاج.

قال العلماء : ولا ينبغي أن يؤخذ من كسوة الكعبة شيء ، فإنه مهدًى إليها ، ولا ينقص منها شيء.

رُوِيَ عن سعيد بن جبير أنه كان يُكره أن يؤخذ من طيب الكعبة يستشفى به؛ وكان إذا رأى الخادم يأخذ منه قَفَدها قَفْدة لا يألو أن يوجعها . وقال عطاء : كان أحدنا إذا أراد أن يستشفي به جاء بطيب من عنده فمسح به الحجر ثم أخذه .

روى البخاري عن ابن عباس : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتُعفِّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم في أعلى المسجد ؛ وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيها تمر، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم. قالت إذاً لا يضيعنا ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ حتى بلغ يشكرون ، وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نَفِد ما في السِّقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يَتَلَوَّى ـ أو قال يَتَلَبَّط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصَّفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا ، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف دِرْعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليه ، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس قال النبي ﷺ (فذلك سعي الناس بينهما)، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه: تريد نفسها ، ثم تسمَّعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ! فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعَقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتى ظهر الماء ، فجعلت تُحوِّضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سِقائها وهو يفور بعدما تغرف ؛ قال ابن عباس قال النبي ﷺ : (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال : لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا معينا) قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافي الضَّيْعة فإن ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يُضيِّع أهله .

لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة اتكالا على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، كما تقول غُلاَة الصُّوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله في الحديث : آللّه أمرك بهذا ؟ قال : نعم .

وقد روى أن سارة لما غارت من هاجر بعد أن ولدت إسماعيل خرج بها إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب البراق هو وهاجر والطفل فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك ابنه وأمه هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحي من الله تعالى ، فلما ولّى دعا بضمن هذه الآية الكريمة. ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ .

لما أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام ، وخط الموضع للبيت المكرم ، والبلد المحرم ، أرسل المَلَك فبحث عن الماء وأقامه مقام الغذاء ، وفي الصحيح : أن أباذر رضي الله عنه اجتزأ به ثلاثين بين يوم وليلة ، قال أبو ذر : ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمِنت حتى تكسَّرت عُكَنى، وما أجد على كبدي سَخُفَة جوع، وذكر الحديث.

وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : (ماء زمزم لما شُرب له إن شربته تشتفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به ، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه ، وهي هَزْمة جبريل وسُقيا الله إسماعيل) .

وروي أيضا عن عكرمة قال : كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إني أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء .

قال ابن العربي : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحَّت نيَّته ، وسلمت طويته، ولم يكن به مكذّبا ، ولا يشربه مجرِّبًا ، فإن الله مع المتوكلين ، وهو يفضح المجرِّبين.

وقال أبو عبدالله محمد بن على الترمذي ، وحدثني أبي ـ رحمه الله ـ قال : دخلت الطَّواف في ليلة ظلماء فأخذني من البول ما شغلني ، فجعلت أعتصر حتى آذاني وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج ، فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلعت منه، فذهب عني إلى الصباح. وروى عن عبدالله بن عمرو : إن في زمزم عينا في الجنة من قبل الركن.

وتضمنت هذه الآية الكريمة أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى ﴿ **رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ** ﴾ أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه ، وقد اختلف العلماء، هل الصلاة بمكة أفضل أو في مسجد النبي ﷺ ؟! فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة في المسجد الحرام أفضل من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ بمائة صلاة ، واحتجوا بحديث عبدالله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة) .

قال الإمام الحافظ أبوعمر : وأسند هذا الحديث حبيبٌ المعلم عن عطاء بن أبي رباح عن عبدالله بن الزبير وجوّده ، ولم يخلّط في لفظه ولا في معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبي خيثمة سمعت يحيى بن معين يقول : حبيبٌ المعلّم ثقة. وذكر عبدالله بن أحمد قال سمعت أبي يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه ! وسئل أبو زُرْعة الرازيّ عن حبيب المعلم فقال : بصري ثقة .

وقد خرَّج حديث حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبي رباح عن عبدالله بن الزبير عن النبي ﷺ الحافظ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمي البُسْتِي في المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف ، والحمد لله.

قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبي ﷺ مثل حديث ابن الزبير ؛ رواه موسى الجُهني عن نافع عن ابن عمرو ؛ وموسى الجهنّى الكوفيّ ثقة ، أثنى عليه القطّان وأحمد ويحيى وجماعتهم ، وروى عنه شعبة والثّوريّ ويحيى بن سعيد.

وروى حكيم بن سيف، حدثنا عبيد الله بن عمر ؛ عن عبدالكريم عن عطاء بن أبي رباح ، عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه) .

وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرِّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازي ، وأخذ عنه ابن وضَّاح، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به. فإن كان حِفظ فهما حديثان، وإلا فالقول قول حبيب المعلم.

وروى محمد بن وضّاح ، حدثنا يوسف بن عدى عن عمر بن عبيد عن عبدالملك عن عطاء عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل) .

قال أبو عمر : وهذا كله نصٌّ في موضع الخلاف قاطع له عند من أُلْهِمَ رشدَه، ولم تَمل به عصبيَّته. وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أصْبَغَ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة في المسجد الحرام على الصلاة في مسجد النبي ﷺ.

وقد اتفق مالك وسائر العلماء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لهما في كل بلد إلا مكة فإنها تُصلَّى في المسجد الحرام. وكان عمر وعلى وابن مسعود وأبو الدَّرداء وجابر يفضِّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم ؛ وإلى هذا ذهب الشافعي ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب في جامعه عن مالك أن آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : يا ربّ هذه أحب إليك أن تُعبدَ فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة ، واختلف أهل البصرة والبغداديون في ذلك ؛ فطائفة تقول مكة ، وطائفة تقول المدينة.

ومن دعاء سيدنا إبراهيم قوله تعالى : ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ (إبراهيم : ٣٧) فاستجاب الله دعاءه ، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار ، وبما يجلب إليهم الأمصار.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس بعض الحديث : (فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألهم عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشَرٍ ، نحن في ضيق وشدة ؛ فشكت إليه، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيِّر عتبَة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال : هل جاءكم من أحد : قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشتنا فأخبرته إنَّا في جهد وشدة قال : فهل أوصاك بشيء : قالت : أمرني أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غيِّر عَتَبة بابك؛ قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك الحقِي بأهلك ؛ فطلقها وتزوج من أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، ودخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا. قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله - قال ما طعامكم ؟ قالت : اللحم. قال: فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي ﷺ: (ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه).

قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

وقال ابن عباس : قول إبراهيم ﴿ **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ** ﴾ (إبراهيم : ٣٧) سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكنى بمكة ، فيصير بيتا محرَّما ، وكل ذلك كان والحمد لله. وأول من سكنه جُرْهُم.

ففي البخاري ـ بعد قوله : وإن الله لا يضيع أهله ـ وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كُدَا ، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا فقالوا : إن هذا الطائر ليدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء ؛ فأرسلوا جَريًّا أو جَريَّين فإذا هُم بالماء، فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال : وأم إسماعيل عند الماء؛ فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ولكن لا حقَّ لكم في الماء . قالوا ! نعم .

قال ابن عباس قال النبي ﷺ: (فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شَبَّ الغلامُ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوَّج إسماعيل يطالع تَرِكته.

●●●●

وبعد أن تعرضنا لبناء الكعبة بصفة عامة من الكتاب والسنة، سنوضح التسلسل التاريخي لبنائها وبإيجاز مما ورد إلينا من أخبار.

التسلسل التاريخي لبناء الكعبة

١- بناء آدم والملائكة :

قدمنا ما ورد بشأن بناء الملائكة للبيت الحرام وتذكر رواية عن عبدالله بن عمرو ابن العاص ـ رضي الله عنهما ـ ((أن آدم ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ قام أيضا ببنائه وهذا يعني تجديد البناء حيث إنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يبنه في بقعة أخرى، إنما بناه على بناء الملائكة الأبرار وطاف به)) .

٢- بناء شيث :

وتذكر أخبار منسوبة إلى ((وهب بن منبه)) ﷺ أن شيثا ولد آدم ـ على نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام ـ قام ـ أيضا ـ بتجديده فلم يزل معمورا حتى نسفه الغرق إبان الطوفان. وظل كذلك حتى بوأه الله للخليل ـ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ فظل بارزا مرفوعا من نحو القرن العشرين قبل الميلاد إلى يومنا هذا، فلم تأت عليه الأرض بغطاء إنما كان يعتريه من آن لآن ما يوجب التجديد فيه فيجدد ويقوى ويظل على ما هو عليه على ما يرضى الله عز وجل .

٣- بناء إبراهيم :

وقد بناه إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحجارة وجعل ارتفاعه تسعة أذرع وطوله من الشمال إلى الجنوب مما يلي الجهة الشرقية اثنين وثلاثين ذراعا، ومن الشمال إلى الجنوب مما يلي الجهة الغربية إحدى وثلاثين ذراعا، ومن الشرق إلى الغرب مما يلي الجهة الجنوبية أي من الحجر الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعا، ومن الشرق إلى الغرب أيضا مما يلي الجهة الشمالية أي من جهة حجر إسماعيل اثنين وعشرين ذراعا، وجعل له بابين ملاصقين للأرض أحدهما من الجهة الشرقية، والثاني من الجهة الغربية ، وحفر في داخله بئرا يكون خزانة له، ولم يجعل له سقفا ولا وضع على بابيه أبوابا تفتح وتغلق. والله أعلم .

٤- بناء العمالقة :

روى الأزرقي عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب ﷺ أنه قال في خبر بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ للكعبة : ثم انهدم ـ يقصد البيت المعظم ـ فبنته العمالقة ثم انهدم فبنته جرهم.

٥- بناء جرهم:

روى التقي الفاسي عن الفاكهي أن الواقدي قال كان البيت قد دخله السيل من أعلى مكة فانهدم فأعادته جرهم على بناء إبراهيم عليه السلام وجعلوا له مصراعين وقفلا ، ولكن جرهم استحلت مال البيت وأحدثوا أمورا، وظلموا واستخفوا بحرمة الكعبة، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصفر.

٦- بناء قصى :

ذكر الزبير بن بكار قاضى مكة في كتاب النسب أن قصى بن كلاب لما ولى أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنيانا لم يبن مثله من قبل، وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه السلام وقد سقفها بخشب الدوم وجريد النخل.

٧- بناء عبدالمطلب:

ذكر أن عبدالمطلب جد النبي ﷺ بنى الكعبة بعد قصى وقبل بناء قريش . ولم يذكر ذلك إلا التقي الفاسي في ((شفاء الغرام)).

٨ - بناء قريش :

روى ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق أنه قال : فلما بلغ رسول الله ﷺ خمسا وثلاثين اجتمعت قريش لبناء الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها ، فبدأ الوليد بن المغيرة بالهدم قائلا: ((اللهم لم ترع اللهم إنا لا نريد إلا الخير)) .

وتقاسمت قريش بناء الكعبة فكان شق الباب لبني عبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش، وكان ظهر الكعبة لبني جمح وسهم ابني عمرو بن هصيص، وكان شق الحجر ((هو والحطيم)) لبني عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن عبدالعزى، ولبني عدى بن كعب بن لؤي.

وفي هذا البناء كان حكم رسول الله ﷺ في الحجر إلا أن قريشا اقتصرت في بناء الكعبة لقول رسول الله ﷺ لعائشة أم المؤمنين : (يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض، وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر، فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة).

قال الأزرقي : كان طولها سبعة وعشرين ذراعا فاقتصرت قريش منها على ثمانية عشر ونقصوا من عرضها أذرعا أدخلوها في الحجر ، وجعلوا لها سقفا وجعلوا فيها ست دعائم في صفين، وجعلوا ارتفاعها ثمانية عشر ذراعا، وكانت قبل ذلك تسع، وجعلوا الميزاب يسكب في الحجر.

٩- بناء عبدالله بن الزبير سنة ٦٤هـ :

روى الحافظ بن حجر في الفتح عدة روايات في حرق أهل الشام الكعبة ورميهم بالمجانيق عليها، فأثر ذلك على أحجار الكعبة، حتى أن الحمام كان يقف عليها فتتناثر حجارتها، واحترق مع الكعبة الحجر الأسود وتصدع ثلاث فرق وخرجت منه شظية من أعلاه، واستشار ابن الزبير الناس في أمر الكعبة، ثم أجمع رأيه على أن ينقضها حتى يبلغ بها الأرض ، وقال : أيها الناس إني سمعت عائشة تقول إن النبي ﷺ قال: (لولا الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندي من النفقة ما يقويني على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له بابا يدخل الناس منه وبابا يخرجون منه). قال فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس .

فأمر أن تعاد الأحجار التي تصلح في بناء البيت وتدفن التي لا تصلح في جوف الكعبة، ثم اتبعوا قواعد إبراهيم من نحو الحجر وأمعنوا في ذلك فكشفوا عن قواعد إبراهيم وهي صخر أمثال الخلف[1] من الإبل فحركوها بالعتل فتحركت قواعد البيت وهو بنيان مربوط ببعضه، فحمد الله وأشهد على ذلك أشراف القوم، وأدخل فيها ما أخرجته قريش منها في الحجر، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا فزادها تسعة أذرع فصار طولها سبعة وعشرين ذراعا، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض، أحدهما الموجود اليوم، والآخر المقابل له المسدود، وكان باب الكعبة قبل بناء ابن الزبير مصراعا واحدا، فجعل لها مصراعين طولهما أحد عشر ذراعا. وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد، وجعل لها درجة في ركنها الشامي يصعد منها إلى سطحها، وجعل فيها ميزابا يصب في الحجر، وجعل فيها روازن للضوء، وجعل لها سقفا وملأها بالذهب.

١٠ـ بناء الحجاج سنة ٧٤ هـ :

في سنة ٧٤ هـ بعد محاصرة ابن الزبير وقتله ، كتب الحجاج إلى عبدالملك بن مروان أن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها، وأحدث فيها بابا آخر واستأذنه في رد ذلك على ما كان عليه، فأذن له عبدالملك ففعل الحجاج ذلك، ورغم أن حديث عائشة أم المؤمنين مقطوع بصحته لروايته من عدة طرق صحيحة، وبالتالي فهو يقطع بصحة ما فعله عبدالله ابن الزبير ، إلا أن العلماء لم يوافقوا على هدم البيت ورده إلى ما فعله ابن الزبير حتى لا تكون كعبة الله ملعبة للملوك يهدمها كل من أراد، فبقيت على حالها.

١١- بناء السلطان مراد خان سنة ١٠٣٩هـ :

في سنة ١٠٣٩ هـ حصل بمكة مطر عظيم جرى منه سيل عظيم دخل المسجد الحرام وملأ الكعبة المشرفة ، ووصل إلى نصف جدارها ، مما أدى إلى سقوط الجدار الشمالي من الكعبة، فدعا أمير مكة علماء البلدة وسألهم عن عمارة ما تهدم من الكعبة، هل تعمر في الحال من قبل ولي الأمر ؟ ومن أي مال يكون التعمير ؟ بمال قناديلها[2] أم بمال غير ذلك؟

فأجاب العلماء عن السؤال بعد طول تفكير وتدبر بأن تعمر الكعبة من مالها. والمبادرة إلى العمارة ممن له على الحرمين الشريفين إمارة. وأن المخاطب بهذا هو السلطان مراد خان. وتم عرض ما وقع على الكعبة وما وصل إليه العلماء من فتاوى على حضرة السلطان مراد خان. وبدأ العمل واستمر حوالي ستة أشهر ونصف. فأعادوا بناءها على ما كانت عليه بعد قطع الحجاج ما أدخله الزبير فيها من جهة حجر إسماعيل من جهة الطول من الشمال إلى الجنوب، وفي يوم ٢ ذي الحجة سنة ١٠٤٠هـ

---

[1] الخلف: هو ضرع الناقة ، ويطلق على حلمة ضرع الناقة القادمان والآخران، كما يطلق على الخف والظلف، ((لسان العرب)).

[2] تبلغ قناديل الكعبة عشرين قنديلا مصنوعة من الذهب، وأحدها مرصع باللؤلؤ.

انتهى كل عمل يتعلق بعمارة الكعبة المشرفة، وهذه هي العمارة الأخيرة ولا تزال على حكمها إلى يومنا هذا ولم يعترها وهن ولا خراب إلا بعض المرمات البسيطة.

وبعد أن استعرضنا التسلسل التاريخي لبناء الكعبة حيث قيل إنها بدأت بالملائكة ثم آدم ثم أولاده ثم نوح ثم إبراهيم ـ عليهم السلام ـ وما إلى ذلك إلا أنني ـ والله أعلم ـ أميل للرأي القائل بأن أول من بناها هو إبراهيم عليه السلام.

•••

وصف الكعبة

الكعبة عبارة عن بناء مربع الشكل، بني بحجارة زرقاء، ارتفاعها ١٣,٢٨مترا. طول ضلعها الشمالية ٩,٩٢ متر، والناحية الغربية ١٢,١٥ متر، والجنوبية ١٠,٢٥ متر، والشرقية ١١,٨٨ متر، وبداخل الكعبة سبعة ألواح من الرخام تحمل أسماء الملوك والسلاطين الذين أمروا بتجديد وعمارة البيت.

يوجد في وسط الكعبة ثلاثة أعمدة قطر الواحد منها نصف متر، وهي التي وضعها عبدالله بن الزبير منذ ١٣٤١ عاما، وهي من الخشب ولا تزال في قوتها ومتانتها إلى الآن، والحمد لله الذي بيده حفظ الآثار الإسلامية . وتوجد دعامة بين كل عمود من الأعمدة الثلاثة معلق عليها قناديل الكعبة .

وباطن الكعبة مفروش بالرخام، وبداخلها ستارة من الحرير مكتوب عليها بالنسيج الأبيض (لا إله إلا الله محمد رسول الله ، الله جل جلاله) ثم (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) ثم داخل دوائر (يا حنان) (يا سلطان) (يا منان) يا (سبحان) .

الحجر الأسود

تغيب الحجر الأسود عن الكعبة لمدة اثنتين وعشرين سنة عندما استولى عليه عدو الله أبوطاهر القرمطي سنة ٣١٧هـ الى أن رده سنبر بن الحسن القرمطي سنة ٣٢٩هـ.

وتعرض الحجر الأسود لعدة اعتداءات منها:

اعتداء رجل رومي سنة ٣٦٣ .

واعتداء رجل مصري سنة ٤١٣ .

واعتداء رجل أعجمي حوالي سنة ٩٩٠.

واعتداء رجل فارسي سنة ١٣٥١هـ. وجميعهم أرادوا كسره أو خدشه، وجميعهم عوقبوا بالقتل.

حجر إسماعيل

حجر إسماعيل (الحطيم) هو الحائط الواقع شمال الكعبة المعظمة، وهو على شكل نصف دائرة، ودخل فيه كما تقدم ستة أذرع وشبر هي من أصل الكعبة، فمن دخل حائطه كمن دخل الكعبة . وأول من دعا إلى ستر جدار الحجر بالرخام هو

أبوجعفر المنصور سنة ١٤٠ هـ. وأول من كسا الحجر كما تكسى الكعبة هو جقمق الجركسي في القرن التاسع .

ميزاب الكعبة

أول من وضع ميزابا للكعبة قريش، ثم عبدالله بن الزبير ، ثم الحجاج بن يوسف ، ومصبه على حجر إسماعيل.

وكان الميزاب يخلع ويركب غيره كلما أهدى إلى الكعبة ميزاب آخر . ومنها ميزاب عمله السلطان عبدالمجيد خان ابن السلطان محمود خان عمله في القسطنطينية وركب سنة ١٢٧٦ هـ وهو مصفح بالذهب بنحو خمسين رطلا وهو الموجود في الكعبة الآن ، والله أعلم.

باب الكعبة

قيل : إن أول من عمل بابا للكعبة أنوش بن شيث، وقيل جرهم، وقيل تبع الثالث أحد ملوك اليمن قبل بعثة الرسول ﷺ وآخر باب عمل للكعبة في زمن السلطان مراد خان سنة ١٠٤٥ هـ، وجعل فيه من الحلية ما زنته ١٦٦ رطلا من الفضة وطلى بالذهب البندقي بما قيمته ألف دينار.

هذا ، وينبغي أن نشير إلى ما قام به الملك خالد بن عبدالعزيز من بضع سنين فقد صفح بالذهب الخالص باب الكعبة والميزاب .

كسوة الكعبة قبل الإسلام

كان العرب يهتمون بكسوة الكعبة، ويرون ذلك من الواجبات والفضائل والمفاخر، وكان ذلك مباحا لكل من أراد، متى شاء وبأي نوع شاء. وكانت الكسوة توضع على الكعبة بعضها فوق بعض، فإذا ثقلت أو بليت أزيلت .

وأول من كساها إسماعيل، وقيل عدنان، وقيل تُبَّع.

وكانت قريش ترافد في كسوة الكعبة، فيقسمون ذلك على القبائل بقدر احتمالها من عهد قصى بن كلاب، حتى أثرى أبو ربيعة بن المغيرة بن عبدالله بن عمر ابن مخزوم من تجارته في اليمن، فكان يكسو الكعبة سنة وجميع قريش سنة، وظل يفعل ذلك حتى مات، فسمته قريش (العدل) لأنه عدل فعله بفعل قريش كلها.

كسوة الكعبة في الإسلام

كسا رسول الله ﷺ الكعبة الثياب اليمانية، ثم كساها عمر وعثمان ـ رضي الله عنهما ـ القباطي[1] ثم كساها الحجاج الديباج وكان معاوية بن أبي سفيان يكسوها مرتين في السنة، مرة في عاشوراء وأخرى في آخر شهر رمضان بمناسبة عيد الفطر، وكانت كسوتها تعمل في مصر من عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ.

---

[1] القباطي: جمع قُبطية بالضم وهو ثوب من ثياب مصر رقيق أبيض.

أما يزيد بن معاوية وعبدالله بن الزبير فقد كانا يكسواها من الديباج الخرساني، أو من مصر أيهما أجود، فلما كانت خلافة المأمون رفع إليه أن الديباج يبلى ، فأمر بكسوة من ديباج أبيض، فعملت وعلقت سنة ٢٠٦ هـ، فصارت الكعبة تكسى ثلاث مرات .

الديباج الأحمر يوم التروية .

والقباطي يوم هلال رجب.

والديباج الأبيض يوم ٢٧ رمضان.

أول من كسا الكعبة بالديباج

وأول من كسا الكعبة بالديباج (خالد بن جعفر بن كلاب) أو (نتيلة) أو (معاوية) أو (يزيد) أو (ابن الزبير) أو (الحجاج)، لم يحدد بعد!

ويجمع بين هذه الأقوال أن كسوة خالد ونتيلة لم تشملها كلها وإنما كسياها شيء من ديباج.

وأما معاوية فلعله كساها في آخر خلافته فصادف ذلك خلافة ابنه يزيد.

وأما ابن الزبير فكان أول من كساها بعد تجديد عمارتها فأوليناه بذلك الاعتبار، لكنه لم يداوم على كسوتها الديباج، فلما كساها الحجاج بأمر عبدالملك استمر ذلك، فكان أول من داوم على كسوتها بالديباج .

وكسوت الكعبة في خلافة الناصر العباسي كسوة خضراء ثم كسوة سوداء، وظلت تكسى الديباج الأسود حتى الآن . وفي سنة ٨١٠ هـ أحدثت في الكسوة نقوش بالحرير الأبيض، وفي سنة ٨١٩ هـ عمل لباب الكعبة ستارة عظيمة الحسن مكتوب فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

وكانت كسوة الكعبة المشرفة على أنواع وأشكال مختلفة، وذلك حسب رغبة ولاة الأمر على مختلف العصور ، كانت الكعبة تكسى من الداخل كلما بليت أو أراد أحد الملوك أوالسلاطين تجديدها ،بخلاف كسوتها من الخارج، فكانت تكسى على الدوام.

كسوة الكعبة من الوقف

وكانت كسوة الكعبة من سنة ٧٥٠هـ من الوقف الذي وقفه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الناصر بن قلاوون على كسوة الكعبة كل سنة، وعلى كسوة الحجرة النبوية والمنبر النبوي كل خمس عشرة سنة، وهذا الوقف عبارة عن ثلاث قرى هي : (باسوس ، وسندبيس ، وأبي الغيط) من قرى القليوبية اشتراها من بيت المال ووقفها على كسوة الكعبة والحجرة، ثم أضيف إليها سبع قرى أخرى ، ولم تزل موقوفة حتى أوائل القرن الثالث عشر فحلها محمد على باشا وتعهدت الحكومة بصنع الكسوة [1] .

---

[1] وأقامت الحكومة المصرية مصنعا خاصا بكسوة الكعبة ، وكان يحتفل بها احتفال كبير بالمحمل، وتحمل إلى الحكومة السعودية، وظل ذلك لسنين ، ثم تولت الحكومة السعودية عمل الكسوة وأعدت لها مصنعا .

ويعتبر حل الوقف من الحوادث المؤلمة في تاريخ الكعبة، وذلك لأن تعهد الحكومة يعتبر تبرعاً ، وقد حصل الامتناع عن إرسال الكسوة في زمن حكومة الشريف الحسين بن علي بن عوف، فوفق الله تعالى جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود إلى إنشاء معمل لعمل كسوة الكعبة، وصنعت فيه عدة كساوى ولا يزال يصنع الكسوة حتى الآن.

معمل الكسوة

تم إنشاء معمل الكسوة بمكة سنة ١٣٤٦ هـ ، ويعتبر هذا المعمل أول دار أسست خصيصاً لصناعة كسوة الكعبة المعظمة بمكة المكرمة، منذ كسيت الكعبة من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث.

وتم عمل أول كسوة في هذا المعمل على غاية ما يرام من حسن الصناعة والإتقان في نهاية شهر ذي القعدة سنة ١٣٤٦هـ ، وكتب عليها على شكل رقم (٨) (لا إله إلا الله محمد رسول الله) على هيئة الكسوة التي كانت تأتي من مصر حياكة وتطريزا ولونا.

أما حزام الكعبة فعرضه متر مطرز بالقصب الفضي المموه بالذهب، مثل الحزام الذي كان يعمل في مصر ، ويوضع هذا الحزام على كسوة الكعبة فيما دون ثلثها الأعلى .

هذا ما كان من أمر كسوة الكعبة من عهد إسماعيل على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام إلى العصر الحاضر ، ومنه يعلم ما كان لملوك المسلمين من المسابقة والمفاخرة في ذلك.

قال رسول الله ﷺ : (هذه الأمة لا تزال بخير ما عظموا هذه الحرمة حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا) . أخرجه أحمد وابن ماجه .

سدانة الكعبة قبل الإسلام

كانت سدانة الكعبة المعظمة بعد بناء إبراهيم الخليل عليه السلام بيد ابنه إسماعيل عليه السلام ثم بعد وفاته صارت لولده نابت بن إسماعيل إلى أن اغتصبها من ولده أخواله جرهم ومكثت في جرهم عدة قرون ، فلما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أمورا عظاما، ونالوا ما لم يكونوا ينالون واستخفوا بحرمته وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها سرا وعلانية، وظلموا من دخلها من غير أهلها، فنصح لهم مضاض بن عمرو بن الحارث ووعظهم وحذرهم من الظلم الذي ركبوه، ولكنهم تكبروا، ويقال أن بئر زمزم قد نضبت لما أحدثت جرهم في الحرم، ودرس مكان البئر وأنبهم.

واغتصبتها[1] خزاعة وأقامت على البيت والحكم بمكة ٣٠٠ سنة، ولكنها بغت وظلمت حينما أبت أن تدع مفتاح الكعبة مع حبى بنت حليل زوجة قصى.

---

[1] أي السدانة.

وكان قصى قد اعتاد أن يفتح البيت المعظم، فإذا مرض أعطى المفتاح لابنته حبى فإذا مرضت أعطت المفتاح لزوجها قصى أو أحد أولادها، فلما مات حليل وأبت خزاعة ترك المفتاح لقصى وأولاده، عزم قصى على محاربة خزاعة فاستنصر أهله من قريش، وبنى كنانة وأهل أخيه رزاح من قضاعة، فأرسلت قضاعة إلى خزاعة يسألونهم أن يسلموا إلى قصى ما جعل له حليل، وذكروهم بما كانت فيه جرهم وما صارت إليه.

ولكن خزاعة أبت فكانت الحرب، وكثرت القتلى في الفريقين فاصطلحوا على أن يحكموا بينهم رجلا من العرب فيما اختلفوا فيه، فحكموا يعمر بن عوف بن كعب ابن عامر من كنانة وكان رجلا شريفا، فلما اجتمع الناس بفناء الكعبة قام يعمر بن عوف فقال: ((ألا إني شدخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين فلا تباعه لأحد على أحد في دم، وإني قد حكمت لقصى بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة دون خزاعة، لما جعل له حليل، وأن يخلى بينه وبين ذلك، وأن لا تخرج خزاعة عن مساكنها من مكة)).

فكان قصى أول رجل من بني كنانة أصاب ملكا وأطاع له به قومه، فكانت إليه (الحجابة) و (الرفادة) و (السقاية) و (الندوة) و (اللواء) و (القيادة).

وقسم قصى أمور مكة الستة على ولديه، فأعطى عبد مناف الرفادة والقيادة والسقاية، وأعطى عبدالدار (ولده الأكبر) السدانة (وهي الحجابة) ودار الندوة واللواء.

وظلت السدانة في يدى بني عبدالدار يتوارثها الأبناء عن الآباء حتى كان فتح مكة، فأخذها منهم رسول الله ﷺ وفتح الكعبة ودخلها ثم خرج الرسول ﷺ من الكعبة ومعه المفتاح فقال له العباس بن عبدالمطلب:

((بأبي أنت وأمي يا رسول الله أعطنا الحجابة مع السقاية)) .

فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾ فدعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال: "غيبوه " ثم قال : (خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله سبحانه واعملوا فيها بالمعروف ، تالدة خالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم).

سدانة الكعبة في الإسلام

روى ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن طلحة قال :

((كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس فأقبل النبي ﷺ يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له ونلت منه، فحلم عني ثم قال: (يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت) فقلت:"لقد هلكت قريش يومئذ وذلت؟"

قال : (بل عمرت وعزت يومئذ) . ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعا يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال.

فلما كان يوم فتح مكة قال : (يا عثمان ائتني بالمفتاح) فأتيته به فأخذه منى ثم دفعه إلىَّ وقال : (خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف) قال : فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال :(ألم يكن ذلك الذي قلت لك ؟) قال فذكرت قوله بمكة قبل الهجرة:

(لعلك سترى هذاالمفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت) قلت بلى، أشهد أنك رسول الله .

وخلاصة ما سبق أن أول من أخذ مفتاح الكعبة بأمر من الله سبحانه وتعالى هو عثمان بن طلحة ، وكان أكبر أولاد أبي طلحة .

وبقيت سدانة الكعبة المعظمة بيده إلى أن توفى سنة ٤٢ هـ فصار ابن عمه شيبة بن عثمان هو رئيس السدانة، ولكون عثمان مات عقيما ـ على ما رواه القسطلاني ـ فقد انحصرت السدانة في أولاد شيبة من بعده، فلما توفى شيبة بن عثمان سنة ٥٩هـ تولى رئاسة السدانة أكبر أولاده، وهكذا جرى العمل أن يكون رئيس السدانة أكبر أولاد شيبة سنا من ذلك التاريخ إلى العصر الحاضر إلى ما شاء الله.

الحطيم

يقول الفيروز أبادي في القاموس : الحطيم : حجر الكعبة أو جداره ، أو ما بين الركن وزمزم والمقام.

وقال ابن الأثير في النهاية : إن موضعين سميا بالحطيم قال :

سمي حطيم مكة ، وهو ما بين الركن والباب ((أي الملتزم)) . وقيل هو الحجر المخرج من الكعبة . وسمى به لأن البيت رفع وترك هو محطوما.

وروى الأزرقي قال : الحطيم ما بين الركن الأسود والمقام وزمزم والحجر، سمى حطيما لأن الناس يزدحمون على الدعاء فيه ويحطم بعضهم بعضا. والدعاء فيه مستجاب.

وقيل لأن العرب كانت تطرح فيه ما طافت به من الثياب فتبقى حتى تتحطم بطول الزمان.

فعلم مما تقدم: أن الحجر يعرف بالحطيم، كما أن الملتزم يعرف بالحطيم أيضا ، وما بين زمزم والمقام [1] والكعبة يسمى بالحطيم . وذكر كثير من العلماء أن نبي الله إسماعيل دفن في الحجر الذي هو الحطيم.

---

[1] يلاحظ أن ذكر المقام هنا باعتبار مكانه الأول، حيث كان بجدار الكعبة الشرقي بين بابهما وفرجة الدائرة الشرقية.

مقام إبراهيم

هو ذلك الحجر الذي كان الخليل إبراهيم عليه السلام يقف عليه عند بنائه البيت كلما ارتفع جدار الكعبة وقد قيل إن فيه: أثراً من قدمي الخليل عليه السلام حيث ساحت قدماه فيه لتظل معجزة خالدة وباقية.

وقد أمرنا الله أن نتخذ مصلى من مقام إبراهيم فنصلي خلف المقام إن استطعنا ذلك ركعتين بعد الطواف وإن عجزنا ففي أي مكان بالحرم.

بئر زمزم

هي بئر قديمة يرجع تاريخها إلى هاجر ـ رضي الله عنها ـ وهي آية من آيات الله تعالى الدالة على توحيده، وهذه البئر نبعت بيد جبريل ـ عليه السلام ـ حين أمره الله إكراماً للوليد إسماعيل عليه السلام. وحين أتت هاجر ـ رضي الله عنها ـ ووجدت الماء تحت خده وهو يشرب فصارت تزم الماء وتحبسه خوفا من ضياعه قبل أن تملأ قربها، ولهذا سميت " زمزم" ، ولم تكن تعلم أن هذه الماء ستصبح شفاء للناس، وقد قال فيها سيد الأنبياء ﷺ : (ماء زمزم لما شرب له).

ويستحب أن يأتيها الحاج بعد الطواف ويشرب منها، ويكثر من شربه وينوي ما يريد من أمور الدنيا والآخرة، وقد دعا ابن عباس فقال : اللهم أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء. وهذه البئر موضعها الأصلي شرقي الحجر الأسود، وقد تطور الأمر وأصبح الحصول عليها عن طريق صنابير للمياه للحصول على ماء نظيفة للتيسير على الحجاج، ونجد أن الحجاج أحياناً ينقلون بعضها لبلادهم تباركا بها ولا بأس في ذلك.

الملتزم

هو الجزء من حائط الكعبة بين الحجر الأسود وباب الكعبة ويسمى "الملتزم"، وذلك لأن الحجاج يلتزمون هذا المكان للدعاء فيه كما كان النبي ﷺ يدعو فيه.

●●●●

بناء المسجد الحرام

المسجد الحرام منذ عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى عهد النبي ﷺ وعهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لم يكن به جدار يحيط به ، وكانت الديار محيطة به، وحدوده حدود المطاف الآن

وقد تطور بناؤه منذ ذلك الحين وحتى الآن حتى صار على النحو الذي هو عليه الآن ولنذكر في هذا الصدد نبذة مختصرة عن كيفية توسعته على مر العهود.

ففي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمل على توسعة المسجد، فقام بشراء بعض الدور من أهلها ووسعه بها ثم جعل على المسجد جداراً دون القامة وكان ذلك في سنة ١٧ هـ.

وفي عهد عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ اشترى دوراً وسع بها المسجد وحين أبى قوم البيع هدم دورهم عليهم وأمر بحبسهم حين صاحوا فيه ولم يخرجهم من محبسهم

إلا حين شفع فيهم عبدالله بن أسيد ، وقد جعل المسجد أروقة [البواكي] وهذا كان في سنة ٢٦ هـ.

أما عبدالله بن الزبير فقد اشترى هو أيضاً دوراً وسع بها المسجد من جانبه الشرقي والجنوبي توسعة كبيرة وكان هذا في سنة ٦٤هـ.

عندما حج عبدالملك بن مروان ، أمر برفع جدار المسجد وسقفه بالساج وكان هذا في سنة ٧٥ هـ.

ثم وسعه ابنه الوليد بن عبدالملك وسقفه بالساج المزخرف ودعمه من داخله بالرخام وجعل له شُرفاً.

وفي سنة ١٣٧ هـ أمر أبوجعفر المنصور زياد بن عبدالله الحارثي أمير مكة بتوسعة المسجد فوسعه من جانبيه الشمالي والغربي فأصبح ضعف ما كان عليه.

وحيث حج أبو جعفر المنصور ورأى حجارة حِجْر إسماعيل ظاهرة أمر عامله زياد ابن عبدالله بتغطيتها بالرخام ليلا فنفذ الأمر.

أما المهدي بن منصور فوسع المسجد من جانبيه الجنوبي والغربي حتى صار واسعاً بدرجة كبيرة وكان هذا في سنة ١٦١ هـ.

وقد تطور الأمر في عهد المعتضد العباسي فأمر بجعل ما تبقى من دار الندوة ـ في الجهة الشمالية للمسجد ـ مسجداً يوصل بالمسجد الحرام ـ وقد كان ـ وجعلت به أساطين وأعمدة وأروقة وكل هذا التطور كان في سنة ٢٨١ هـ.

وفي سنة ـ ٣٧٦ هـ ـ أمر جعفر المقتدر بالله أن يبنى في الجهة الغربية من المسجد مسجد يوصل به، فنفذ، وتسمى هذه الزيادة ، زيادة باب إبراهيم.

وقد رأى السلطان سليم الثاني في سنة ٩٧٩ هـ أن يستبدل السقف بقباب دائرية بالأروقة، ليؤمن من تآكل الخشب، وقد كلف الوالي على مصر حينئذ وهو سنان باشا للقيام بهذه المهمة، فكلف بدوره المهندس المعلم محمد المصري وقد كان كبير المهندسين في ذلك الوقت وبدئ في تنفيذ هذا العمل سنة ٩٨٠ هـ وانتهى في عام ٩٨٤ هـ، وقد عمل السلطان سليم على أن يكون المسجد المكي على أحسن إتقان وأبدع نظام.

"توسعة المسجد الحرام" هذا المشروع طرح في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز الذي اهتم بتوسعة المسجد الحرام فأصدر أمره بدراسته دراسة وافية من خلال عدة لجان وقد بدئ العمل فيه في سنة ١٣٧٥ هـ، واحتفل بوضع حجر الأساس لهذا المشروع العظيم.

وعلى مر الأيام حدثت عدة تغيرات في المسجد الحرام منها :

- تحويل القسم الأكبر من طريق المسعى لشارع الملك سعود ماراً خلف الصفا إلى أن يلتقى بالطريق الأول.

- تم بناء المسعى بطابقين فيما بين الصفا والمروة وطوله حوالي ٣٩٥ متراً وعرضه عشرون متراً وارتفاع الطابق الأول ١٢ متراً، والثاني ٩ أمتار.
- تم بناء سلمين دائريين للصفا والمروة.
- أقيم حاجز وسط المسعى قسم لقسمين: أحدهما للذهاب ، والآخر للرجوع.
- وبعد التوسعة السعودية بلغت مساحته حوالي ٧٦٩٢٠ متراً وأصبح للمسجد خمسة وعشرون باباً ، منها ثمانية شمالية وسبعة أبواب جنوبية وخمسة غربية وخمسة شرقية.

●●●●

فضل الحرم المكي في الكتاب والسنة

قال تعالى: ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۞** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**﴾ وللحرم المكي فضائل سنتعرف عليها من خلال بعض الآيات القرآنية والأحاديث القدسية فقد قال تعالى : ﴿ **وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۞ وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۞** ﴾ وقال أيضاً : ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ . وقال تعالى :﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ** ﴾ والمقصود بالحرم الآمن حرم مكة المكرمة.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه؛ إلا المسجد الحرام)) [رواه البخاري ومسلم والترمذي].

وقد قال ﷺ : (اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة).

وهكذا لو تتبعنا فضل الحرم المكي ومكة في الكتاب والسنة سنملأ الكثير من الصفحات وهو ما يحتاج لدراسة متخصصة، ولذا سنكتفي بهذا القدر في هذا الصدد وسنوضح الأحكام التي يخالف فيها الحرم المكي غيره بإيجاز فيما بعد في الباب الخامس.